

## التعجب ممّا (لَمَّا يَقَع) في الخطاب القرآني مقارنة (نحوية تداولية)

في تفسير التحرير والتنوير

م.د. هاني كنهر عبد زيد العتّابي

المديرية العامة لتربية محافظة واسط

[hani.kenher@alkutcollege.edu](mailto:hani.kenher@alkutcollege.edu)

### الملخص

يركّز هذا البحث على سؤالين مهمّين: الأول يسأل عن مصطلح التعجب عند القدماء والمحدثين، فينتبّع تنقله في طريق الاصطلاح، مؤكّداً أنّه لم يكن صفة مسقطه عنوة، ولا إضافة منسلخة عن المفهوم، ثمّ يقدّم مقارنة تصنيفية لعمل التعجب ضمن تقسيمات: الخير والإنشاء، والواجب وغير الواجب. وينطلق السؤال الثاني من حدود الممارسة التفسيرية، فيشتغل على مناقشة مقاربات الطاهر بن عاشور لعمل التعجب في الخطاب القرآني، مركّزا على جزء مهمّ منها، وهو التعجب ممّا لَمَّا يَقَع، بناء على الاعتقاد بأنّ التعجب يكون من الأمر الواقع، فيحاول أن يكشف عن طريقة القرآن في استحضار غير الواقع، وتحقيقه وتنزيله بمنزلة الواقع، ثمّ التعجب منه.

### Abstract

This research focuses on two important questions: The first asks about the term “wonder” among the ancients and moderns, and traces its movement along the path of terminology, confirming that it was not a forcefully dropped attribute, nor an addition separated from the concept. Then it presents a classification approach to the work of wonder within the divisions: predicate, construction, obligatory and non-obligatory. the duty. The second question starts from the limits of interpretive practice, and works on discussing Al-Tahir bin Ashour’s approaches to the work of wonder in the Qur’anic discourse, focusing on an important part of it, which is the wonder of what happens, based on the belief that wonder is a matter of fact, so he tries to reveal the Qur’an’s method in Conjuring something other than reality, realizing it and making it equal to reality, then being amazed by it.

### المقدمة

حظي التعجب في اللغة العربية — تركيباً وعملاً — بعناية الباحثين واهتمامهم؛ إذ نال حظاً وافراً من الدراسة، وأنتج فيه الباحثون دراسات متنوّعة، منها ما عني بتركيبه ودلالته، ومنها ما عني بدراسته بوصفه عملاً لغوياً يحدث تأثيراً، ومنها ما ركّز على دراسته في الاستعمال القرآني، وقد خلّصت هذه الدراسات إلى

أنّ التعجب يشكّل خلافا كبيرا عند القدماء والمحدثين من حيث تصنيفه إلى خبر وإنشاء، وإلى واجب أو غير واجب.

وقد التفت بعض الباحثين المحدثين إلى مصطلح آخر مجاور لمصطلح التعجب ومتفرّع عنه، وهو مصطلح التعجب، وحاولوا تبيان الفرق بين المصطلحين بصورة يسيرة؛ إذ لم يفرّدوا هذا المصطلح بالتصنيف والدراسة، بل كان حاضرا في مناقشاتهم لعمل التعجب، وقد أُلّف جزءا من نتائجهم، من خلال نظرهم في طرائق القدماء ومناهجهم في تحليل التراكيب التعجبية في كلام العرب، ومن هنا جاءت فكرة دراسة (التعجب في الخطاب القرآني)، ولما كان هذا العنوان على قدر من الانفتاح الذي يعسر حدّه، كان علينا أن نقلص هذا الانفتاح إلى شيء من التحديد، يثري قضية أخرى تنبّه لها بعض المفسرين وهي (تنزيل غير الواقع بمنزلة الواقع)، وهنا ظهرت حاجة البحث إلى مدوّنة محدّدة؛ لتكون نتائجه على وجه من الدقّة، فانتخبنا له تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور؛ لما فيه من نضج بيّن في عرض أمثلة التعجب في الخطاب القرآني، ومناقشة ظاهرة تنزيل غير الواقع بمنزلة الواقع، فاستوى العنوان: **(التعجب ممّا لما يقع في الخطاب القرآني، مقارنة نحويّة تداوليّة في تفسير التحرير والتنوير)**، وقد أثرنا توظيف (لما) على (لم)؛ لما فيها من معنى توقّع حصول الفعل، وحدّدنا المقاربة بثنائيّة النحويّة التداوليّة؛ لأنّ عمل التعجب - كغيره من الأعمال اللغويّة - ينشأ في ظروف (التركيب والمقام)، وبناء على هذه المعطيات كان العنوان جامعا مانعا.

على أنّ هذا البحث يبدأ أوّل ما يبدأ من الأسئلة التي ناقشها جملة من القدماء والمحدثين حول تصنيف عمل التعجب، والفرق بينه وبين عمل التعجب، منطلقا من التركيب النحويّ إلى العمل التداولي، وهو إذ يناقش هذه الأسئلة يحاول أن يعرض إشكاليّة إطلاق مصطلح التعجب على الاستعمال القرآني، ويتناولها بالبحث والتحليل مرجّحا مصطلح التعجب الذي تبنّاه جملة من المفسرين، ومؤيّدا ذلك بطرائق معالجة هذه الظاهرة عند النحويين. وإذا كان من المعلوم الثابت أنّ المتكلم - أيّ متكلم - قد يتعجب ممّا رأى أو سمع أو ممّا أدرك، فكيف يمكن التعجب ممّا لمّا يدرك بعد؟ وما سبل ذلك؟

إنّ متابعتنا لتفسير ابن عاشور أسعفت البحث بإجابات يُطمأنّ إليها، وبيّنت طريقة التعجب ممّا لما يقع في الخطاب القرآني، وعلى ذلك فإنّ الباحث يدّعي أنّ هذا البحث جديد في موضوعه، أصيل في نتائجه؛ يزداد على ذلك أنّه يقدم قراءة جديدة لعمل التعجب في العربيّة، ويحاول أن يجد له تصنيفا مغايرا لعمل التعجب بناء على اختلاف الفاعل بينهما.

ومهما يكن من أمر، فقد تتبّع هذا البحث في مطلبه الأوّل مصطلح التعجب في المعجمات العربيّة، وتابع مسيرته في الطريق إلى الاصطلاح عند القدماء (النحويين والمفسرين) والباحثين المحدثين، ثمّ عرض لإشكاليّة تصنيف عمل التعجب وخلص منها إلى تصنيف عمل التعجب، واشتغل في مطلبه الثاني على مقاربات ابن عاشور لعمل التعجب ممّا لما يقع، وحاول تصنيفها بين الأعمال اللغويّة المباشرة والأعمال اللغويّة غير المباشرة، وهو في كلّ ذلك يسعى إلى بيان خصائص التعبير القرآنيّ وصوره البيانيّة.

**المطلب الأوّل: مقارنة المصطلح وتصنيف العمل**

**أولا: مقارنة المصطلح**

#### ١- تحديّدات معجميّة لمصطلح التعجب

التعجب مصدر الفعل (عجّب)، يدلّ على كبر للشيء واستكبار له، إذ يقال: عجّب عَجَبًا، وهو أمرٌ عجيبٌ وعَجَبٌ وعُجَابٌ، إذا استكبر واستعظم، ونقول: هو مُعْجَبٌ بنفسه إذا دخله العُجْبُ<sup>(١)</sup>، وهو يرد لإنكار ما يردُّ على المتكلم لقلّة اعتياده<sup>(٢)</sup>؛ أيّ النظر إلى غير المألوف المخالف لما اعتيد عليه، ومنه قولهم: عَجَبْتُه



أما الطاهر بن عاشور (ت ١٢٨٧هـ) فلم يجد عن هذا السبيل في التحليل، ولعلّ صنيعه في تناول إنشاء التعجب أكثر وضوحاً وتفصيلاً من سابقه؛ وقد احتجّ لرأيه بما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء ١]؛ إذ قال: "المعنى تعجب السامعين؛ لأنّ التعجب مستحيلة حقيقته على الله لا لأنّ ذلك لا يلتفت إليه في محامل الكلام البليغ لإمكان الرجوع إليه في التمثيل، مثل مجيء الرجاء في كلامه تعالى نحو: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ [البقرة ١٨٩]، بل لأنّه لا يستقيم تعجب المتكلم من فعل نفسه، فيكون معنى التعجب فيه من قبيل قولهم: أتعجب من قول فلان كئيت وكئيت" (١٨).

وهو بذلك يركّز على جانبين: الأوّل استحالة تعجب المتكلم من نفسه، ولا سيّما إذا كان المتكلم الله تعالى، والثاني: موازنة التعجب بالرجاء في القرآن الكريم، وكأنّه يشير إلى ما يماثل تحليل سيبويه السابق ذكره في تنبيه المتكلم مخاطبه على الرجاء والتعجب.

وقد وجدنا عند بعض المتأخرين من المفسرين محاولة جادة للفصل بين التعجب والتعجب؛ إذ يذكر شهاب الدين الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ) أنّ التعجب "بمعنى جعل المخاطب معجبا بما ألقى إليه أو متعجبا منه، أو عدّه أمرا عجيباً" (١٩)، ولكنهم مع هذا التفريق البيّن بين المصطلحين استعملوهما متجاورين مفصولين بـ(أو) التي تفيد التخيير، فقالوا في وصف عمل بعض الأدوات النحويّة إنّها "أفادت التعجب أو التعجب" (٢٠)، فإذا كان هذا التخيير مبنيّ على جواز إطلاق أحد المصطلحين على الآخر من دون مراعاة الفاعل فيه، فهو مردود، وإذا كانت فيه إشارة إلى اختلاف الفاعل، وهو ما تؤيّد، فهو مقبول، وعلى أية حال، فليس القرآن الكريم بمستجيب في كئيته لمفهوم التعجب بعدّه مصطلحا مرادفا للتعجب.

وصفوة القول أنّ مفهوم التعجب كان حاضرا عند النحويين الأوائل؛ إذ تجلّت ملامحه في توجيههم للنصوص القرآنيّة توجيها تداولياّ مراعيّا فاعليّ القول: المتكلم والمخاطب؛ ثمّ استقرّ مصطلحا ومفهوما عند المفسرين، لكنّ أيّا منهم لم يفرد له بابا خاصّا، ولم يقدّم له حدّا جامعا مانعا، سوى بعض الموازونات بين التعجب والتعجب، وقد يعود سبب ذلك إلى تفرّعه عن التعجب، أو قل: إنّ التعجب إنشاء التعجب.

أما الباحثون المحدثون فقد حاولوا صياغة مفهوم خاصّ بإنشاء التعجب بموازنته مع التعجب؛ لأنّه يمثّل نقطة البدء فيه؛ فالتعجب عندهم يختلف "عن التعجب؛ إذ في التعجب انفعال ودهشة تقف عند المتكلم، وفي التعجب حمل للغير على الانفعال والدهشة" (٢١)، والتعجب عندهم "حمل المخاطب على التعجب، إذ إنّ فعل التعجب فيه مصروف إلى المخاطب" (٢٢).

ويبدو أنّ مصطلح التعجب عندهم لم ينتقل عن مفهومه المتّصل بالتعجب منذ عهد الخليل وسيبويه؛ وهو مفهوم لا يختلف كثيراّ عمّا جاء في معجمات العربيّة، وتفسير القرآن، لكنّه قادر على بيان إنشاء التعجب بشكلٍ أتمّ.

وعلى وفق هذا المعطى يمكن القول إنّ التعجب عمل يندرج ضمن الإنشاء، وهو بعد يقع ضمن غير الواجب في تصنيف العمل اللغويّ، ويتلخّص في تنبيه المتكلم مخاطبه وحثّه على الانفعال تجاه ما يذكره له، لخروجه عن المألوف ممّا يرى أو يسمع أو غير ذلك ممّا تدركه الحاسة، أو يدرك بالمعنى.

### ثانيا: من التعجب إلى التعجب، مقارنة في تصنيف الانفعال

تردّد النحويّون في تصنيف عمل انفعال التعجب ضمن الواجب وغير الواجب، وأخذ هذا التردّد طريقه إلى تصنيفه ضمن الإنشاء والخبر؛ لأنّ التصنيف الأوّل — على رأينا — شامل للتصنيف الثاني، وهو ذو قيمة نحويّة تداوليّة تنطلق من مبدأ الاستقرار والثبات في اعتقاد المتكلم سواء أكان متحققا في الواقع أم غير متحقّق، فما كان واقعا في اعتقاد المتكلم ثابتا في تصوّره يُعدّ واجبا، وما كان غير ثابت في تصوّره يُعدّ غير واجب (٢٣)، وهنا تتضح العلاقة بين تصنيف الواجب وغير الواجب، وتصنيف الخبر والإنشاء، فالأوّل

يتعلق باعتقاد المتكلم وتصوره، ولا علاقة له بالواقع، والثاني ينطلق من الواقع أو الإمكان، ويتصل باعتقاد المتكلم أو تصوره في حدود هذا الواقع.

ولعل نقطة البدء عندنا قول سيبويه على لسان أستاذه الخليل (ت ٥١٧٠هـ): "هذا باب ما يعمل عمل الفعل، ولم يجر مجرى الفعل، ولم يتمكن تمكّنه، وذلك قولك: ما أحسن عبد الله. زعم الخليل أنه بمنزلة قولك: شيءٌ أحسن عبد الله، ودخله معنى التعجب، وهذا تمثيل ولم يُتكلّم به"<sup>(٢٤)</sup>؛ فلما كانت عبارات سيبويه تمثل وصفاً حقيقياً دقيقاً للبنية العميقة، وتكشف عن حرصه وأستاذه على الطابع الافتراضي لمثل هذه النصوص<sup>(٢٥)</sup>، فإن عبارته التمثيلية لا يمكن أن نعدّها أساساً في تصنيف التعجب ضمن الواجب وغير الواجب وإن كانت في ظاهرها خبرية؛ إذ "لم يستقرّ لدى المتكلم المتعجب الشيء المبهم الذي زاد في حسن عبد الله وجماله، وإن كان قد استقرّ لديه حسنه الزائد"<sup>(٢٦)</sup>، وقد توالى الإشارة إلى مجهولية الإخبار في التعجب عند النحويين؛ إذ يذكر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) أن "الغرض من التعجب الإخبار عن جهل الشيء"<sup>(٢٧)</sup>، ويذكر الرضي (ت ٦٨٦هـ) أنه "انفعال يعرض للنفس عند الشعور بأمر يخفى سببه"<sup>(٢٨)</sup> على أن تصنيف الواجب وغير الواجب — كما أشرنا — متعلق بالاعتقاد لا بالواقع، ولما كان جزء منه مجهولاً صعب التصنيف،

أما الباحثون المحدثون فقد اختلفوا أيضاً في تصنيف التعجب في باب الخبر والإنشاء، كما اختلفوا في تصنيفه ضمن الواجب وغير الواجب، فقد رأى تمام حسان أن التعجب يندرج تحت قسم الخوالب في تصنيفه لأقسام الكلم، وهو بعد أسلوب إفصاحي يعبر عن انفعال المتكلم من أمر ما، وإن كان يدخل ضمن الأساليب الإنشائية<sup>(٢٩)</sup>، فهو يقدم قراءة جديدة لأقسام الكلام، ويبني عليها قراءته لإنشاء التعجب، لكنّه لا يخرج من قسمي الخبر والإنشاء، بل هو على رأيه خالفة إفصاحية تندرج في قسم الإنشاء.

وقد ذهب بعض الباحثين من خلال النظر في آراء القدماء ودراساتهم إلى أن أسلوب التعجب لا يندرج في باب الواجب، كما لا يندرج في باب غير الواجب بحسب مصلح سيبويه، لأنّه يخالف مفهوم التصور والاعتقاد الذي كان معياراً أساسياً في التصنيف<sup>(٣٠)</sup>؛ إذ يرى الدكتور خالد ميلاد أن علماء العربية تردّدوا في تصنيف التعجب بين الواجب وغير الواجب، والخبر والإنشاء؛ لأنّ "في التعجب نوعاً من الإبهام يخالف الخبر المحض"<sup>(٣١)</sup>، وقد أفضى به نحو هذا التحليل إلى وضع التعجب مع النداء في باب الأعمال الإنجازية الشبيهة بالأصوات، لما فيه من انفعال مسنود بالمذم<sup>(٣٢)</sup>، ولأنّه ليس خبراً محضاً، لمجهولية سببه؛ إذ ليس الكلام كلّه خبراً وإنشاءً، بل ثمّ نوع آخر يختلف عنهما وهو الأعمال اللغوية الشبيهة بالأصوات، وقد رأى الدكتور خالد خليل هويدي أنّ قراءة الدكتور خالد ميلاد للتعجب تقترب من قراءة الرضي الأستراباذي، وهذا التقارب يتحدّد في عدّ التعجب نمطاً إنشائياً إفصاحياً مخالفاً لنظائره، وهي قراءة دقيقة إذا ما وزنت بقراءة الدكتور تمام حسان التي غلب فيها التنظير على التطبيق<sup>(٣٣)</sup>.

ولم يخرج الباحثون المحدثون عن نحو هذه التصورات، فمنهم من أفرد للتعجب قسماً خاصاً به، ومنهم من تابع القدماء في عدّه خبراً غير محض، فقد خلص الدكتور أحمد المتوكل إلى أنّ التعجب — في رأي النحويين القدماء والمحدثين — نمط جملي قائم بنفسه، وهو لا يندرج في قسم الخبر، ولا يحتمل الصدق والكذب، وإنّما هو انفعال يطراً على المتكلم ويظهر في خطابه<sup>(٣٤)</sup>، ورأى الدكتور شكري المبخوت أنّ التعجب عند القدماء محمول على الخبر مع ما فيه من الإبهام<sup>(٣٥)</sup>؛ وتبيّن لدى الباحثة أفرح المرشد أنّ التعجب عمل قائم بنفسه، لكنّها من متابعة كلام سيبويه ومن تبعه من النحويين أدرجته في باب الواجب؛ بناءً على القول بأنّ التعجب لا يكون إلّا ممّا يقع ويثبت، أمّا الإبهام أو السبب المجهول فقد فسّرتّه بأنّ المتكلم يريد إعلام المخاطب بأنّ في المتعجب منه مزية يسهل إدراكها، على أنّها فهمت من كلام سيبويه أنّ المتعجب منه يكون معرفة أو نكرة مخصّصة، وهذا ما يوضّح شيء من الإبهام<sup>(٣٦)</sup>.

ولمّا كان التعجّب انفعال مجهول سببه، وكان هذا الجهل سببا في تردّد النحويّين والباحثين المحدثين واختلافهم في تصنيفه ضمن الواجب وغير الواجب، والخبر والإنشاء، فلا تردّد في تصنيف انفعال التعجيب ضمن غير الواجب؛ لأنّ التعجيب مخالف للتعجّب في هذا الباب؛ فهو لا يمثّل الانفعال والدهشة عند المتكلّم، بل يصوّر عمل طلب الانفعال، بمعنى أنّ المتكلّم يوجّه المخاطب إلى الانفعال والدهشة، وهذه التوجيه لا يكون إلا إذا كان ثمّ اعتقاد عند المتكلّم بأنّ الانفعال غير واقع، فيطلب وقوعه، وإن كان مجهول السبب، أو كان فيه نوع من الإبهام؛ لأنّ معيار التصنيف ضمن الواجب وغير الواجب هذه المرّة متعلّق بحصول الدهشة عند المخاطب إزاء هذا الخبر، ولا يتعلّق بمضمون الخبر نفسه.

فالتعجّب مختلف فيه بين الواجب وغير الواجب والخبر والإنشاء والإفصاح؛ فهو من جهة البنية العميقة التي تمثّل (المحتوى القضويّ) يدلّ على خبر مجهول سببه، أمّا من جهة الاعتقاد فمجهوليّة سببه تحول دون تصنيفه، وإن كان ثابتا في ذهن المتكلّم قبل النطق به، أمّا التعجيب فمعياره حدوث الانفعال وفعل الدهشة عند المخاطب وهو أمر غير واقع قبل النطق به، لذلك يمكن تصنيفه ضمن غير الواجب (الإنشاء الطلبيّ)، وليس في البنية النحويّة ما يفرّق بين التعجّب والتعجيب، بل الأمر مرجعه إلى الإرادة والقصد، فحين يقول المتكلّم: (ما أحسن زيدا)، ويقصد التعجّب منه، فهو أسلوب مختلف فيه بين الخبر والإنشاء على اختلاف أقسامه، وحين يقول الجملة نفسها، ويريد من المخاطب أن يتعجّب إزاء هذا الخبر، فهو أسلوب يقع ضمن غير الواجب (الإنشاء الطلبيّ)؛ لأنّه يقصد حدوث الدهشة عند المخاطب، ولا يريد تبيان الخبر، فهو حينئذٍ واقع لا محال.

يزاد على ما تقدّم ذكره أنّ تردّد النحويّين في تصنيف التعجّب إلى (خبر وإنشاء) كان بسبب تركيزهم على المحتوى القضويّ: (شَيْءٌ أَحْسَنَ عَبْدُ اللَّهِ<sup>(٣٧)</sup>) (لا الفوّة الإنجازيّة، أمّا تصنيف التعجيب بين الواجب وغير واجب فهو خاضع للقوّة الإنجازيّة لا المحتوى القضويّ، لسبب بسيط، وهو أنّه لا شيء في البنية النحويّة يدلّ على أنّه تعجيب لا تعجّب، وهذا يعني أنّ التعجيب يختصّ بالإنجاز، ومن هنا ركّز البحث على إنشاء التعجيب متجاوزا المحتوى القضويّ الذي تظهر فيه أساليب التعجّب إلى الإنجازيّة التعجيبية.

ومن جانب آخر أنّ التعجّب في جانبه الخبريّ، على ما يرى (سبيربر (Wilson) وولسن (Wilson): "تأكيد إثبات"<sup>(٣٨)</sup> يؤكّد فيه المتكلّم للمخاطب ثبات مضمون الخبر، وإذا استثمرنا هذه الملاحظة في التعجيب وجدنا أنّ المتكلّم يضمن صدق المحتوى القضويّ، ويعمل على إنشاء التعجيب عند المخاطب بناء عليه؛ أي أنّه ينبّه أو يحمله على التعجّب منه، سواء أكان المُتَعَجِّبُ منه واقعا أم غير واقع، فالتعجيب يعمل على استحضار الماضي الواقع، والمستقبل الذي سيقع، وهذا يعني أنّ المحتوى القضويّ ليس معيارا مركزيا في تصنيف التعجيب؛ لأنّه واقع ومستقرّ في اعتقاد المتكلّم، وإتّما المعيار هو انفعال المخاطب بناء على تنبيهه المتكلّم، ومن هنا تتّضح إنشائيّة التعجيب وتصنيفه في باب غير الواجب.

**المطلب الثاني: مقاربات ابن عاشور للتعجب ممّا (لما يقع) في الخطاب القرآني**  
**أولا: عمل التعجيب المباشر:**

#### ١- التعجيب باستحضار غير الواقع.

يرد التعجيب في القرآن الكريم ممّا لما يقع؛ إذ يعمل الخطاب القرآني على تنبيه المخاطبين وتوجيههم لاستحضار صورة ما، ثمّ التعجّب منها، وهذا يعني أنّ عمل التعجيب في هذه الحال يشغل في سبيلين: الأوّل حتّى المخاطب إلى استحضار حال لما تقع؛ وكأنّها واقعة، والثاني: تنبيه المخاطب على التعجّب ممّا تصوّره واستحضره في ذهنه.

ولأنّ النظرة التداوليّة لخطاب ما تؤمن "بأنّ الخطاب لا يكون إلاّ بين متكلّم ومخاطب، ولا يكون إلاّ لدواع، ولا يكون إلاّ لمقاصد، ولا يكون إلاّ في إطار زمنيّ، وشروط تواصلية، هي ما نعبر عنه بعناصر السياق والمقام"<sup>(٣٩)</sup>، لأنّ تلك هي شروط النظر في خطاب ما، حاول بعض النحويّين والمفسّرين تأويل

الخطاب القرآني في حدود هذه النظرة، فعملوا على تفسير عمل التعجب مراعين شروطه السياقية والزمنية، مركزين على مقاصد الخطاب القرآني ودواعيه.

وقد اتضحت هذه النظرة بجلاء في التركيز على الشروط الزمنية للخطاب، ففي سياق تفسيرهم لقوله تعالى: □ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار □ [البقرة ١٧٥] حاولوا تحديد المخاطبين، وتبيين مقاصد الخطاب وشروطه؛ إذ تراءى للفراء (ت ٢٠٧هـ) أن في هذا الخطاب وجهين تأويليين "أحدهما معناه: فما الذي صبرهم على النار؟ والوجه الآخر: فما أجرهم على النار"<sup>(٤٠)</sup>، ويبدو أن الوجه الأول يبني على النظر إلى الخطاب بوصفه سؤالاً يحمل بعداً تأثيرياً، والثاني يبني على التعجب، والتعجب هنا مفسر بالاستبدال، استبدال الصبر بالجرأة؛ لأنه صبر مبالغ فيه إلى حدّ الجرأة، وقد غادر الفراء هذا الخطاب دون الخوض في شروط إنجازها؛ إذ لم يركّز على زمن وقوع ما (سأل) أو (عجب) منه، أو وقع هو أو سيقع؟

ولم يخرج المبرّد عن مثل هذا التفسير، لكنّه صرح بدلالته على "التقرير والتوبيخ وتقديره: أي شيء أصبرهم على النار، أي دعاهم إليها واضطرهم إليها"<sup>(٤١)</sup>، ولعلنا نفهم من كلامه أنه يريد القول: إن في الخطاب تثبيتاً لوقوع هذا الأمر، وتوبيخاً للمقصودين به، والتقرير هنا بمعنى أنه واقع أو أنه سيقع، غير أن الفراء لم يتوسّع في بيان الشرط الزمني، واختصر في تفسيره على الاستفهام، وأوضح قوّته الإنجازيّة المتمثلة بالتقرير والتوبيخ.

أما أبو البركات الأنباري (ت ٥٧٧هـ) فقد حدّد نظرتّه إلى الخطاب في حدود عائديّة التعجب، وهو تعجب الحقّ من حالهم هذه بعد أن لم يكن له علم به، أم هو راجع إلى المخاطبين، وتنبههم إلى أنّ حال هؤلاء ممّا ينبغي التعجب منه، إذ يقول: "والتعجب يرجع إلى المخاطبين، لا إلى الله تعالى، أي: حالهم حال من يُتعجب منه؛ لأنّ حقيقة التعجب في حقّ الحقّ لا تتحقّق؛ لأنّ التعجب إنّما يكون بحدوث علم بعد أن لم يكن، ولهذا قيل في معناه: التعجب ما ظهر حكمه وخفي سببه، والحقّ تعالى عالم بما كان، وبما يكون، وبما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون، وكما أنّ التعجب يرجع إلى الخلق لا إلى الحقّ، فكذلك ههنا"<sup>(٤٢)</sup>، ومثل ذلك ما ذكره ابن يعيش حين بيّن أنّ المعنى: "هم ممّن يقال فيهم ذلك"<sup>(٤٣)</sup>.

والسؤال هنا كيف جاء هذا التعجب ممّا لمّا يقع؟ وهو ما لم يجب عنه الفراء والمبرّد وأبو البركات الأنباري، ولم يعرضوا له على وجه يذكر، بل تدرّجوا في تفسير التعجب بين الاستفهام والتعجب مركزين على نوع الأسلوب، وقد نبّه ابن مالك (ت ٦٧٢هـ) إلى زمن وقوع ما عجب منه بقوله: "أي: ما أجرهم عليه. وكذلك قولهم: ما أكثر قيامه في ساعة كذا وكذا! على أنّه ممّا يفعل ذلك حتّى كأنّه واقع. وكذلك: ما أحسنك إذا تزيت! إن كان من عادته جاز، وإلّا لم يجر. وإمّا جاز في هذا لأنّه لمّا كان يبلغه صار كأنّه حاضر وواقع"<sup>(٤٤)</sup>، فعبارة (كأنّه واقع) إشارة جليّة إلى ما لمّا يقع.

على أنّ أوضح ما يمكن الإشارة إليه في تفسير إنشاء التعجب في هذه الآية المباركة ما ذكره الطاهر بن عاشور؛ إذ تبين لديه من النظر في هذه الآية أموراً عدّة؛ أوجزها بأنّ الآية "تعجب من شدّة صبرهم على عذاب النار، ولما كان شأن التعجب أن يكون ناشئاً عن مشاهدة صبرهم على العذاب وهذا الصبر غير حاصل في وقت نزول هاته الآية بنى التعجب على تنزيل غير الواقع منزلة الواقع لشدّة استحضار السامع إيّاه بما وصف من الصفات الماضية، وهذا من طرق جعل المحقّق الحصول في المستقبل بمنزلة الحاصل، ومنه التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وتنزيل المتخيّل منزلة المشاهد"<sup>(٤٥)</sup>، فقد اعتمد في تحليل إنشاء التعجب مراحل عدّة، نوبها كما يأتي، بحسب ما ذهب إليه ابن عاشور:

أولاً: تثبيت المصطلح: التصريح بأنّ ما في الآية تعجب من حيث المصطلح والمضمون، وهو تعجب الحقّ تعالى ذكره المخاطبين من شدّة صبر المذكورين في الآية، وجرأتهم على تحمّل النار.

ثانيا: تمثيل تداولي: إنَّ التعجب من شيء ما يتطلب حدوث ذلك الشيء ووقوعه؛ ليصلح سببا للانفعال والدهشة، ولا يمكن التعجب من شيء إلا بعد وقوعه حقيقة أو عن طريق الاستحضار الذهني.

ثالثا: نوع المخاطبين: إنَّ هذا النوع من التعجب يبني على تنبيه المخاطبين وحثهم على استحضار حال المقصودين بالآية الكريمة في الذهن، وهي عملية أعلى من الإدراك المجرد، أو العلم العابر، إنها عملية تفكر وتدبر وتصوّر، لا يتمكن المخاطبون من أداء فعل الانفعال والدهشة فيها إلا إذا كانوا مراقبين لأحوال المقصودين بدقة؛ إذ تفضي بهم هذه المراقبة إلى تصوّر جزاءهم قبل وقوعه، وهذا التصوّر مفتاح لإيقاع إنشاء التعجب.

رابعا: السياق اللغوي: إنَّ إشارته إلى الصفات الماضية دليل على العناية بالسياق اللغوي بما فيه من ذكر لكتمان الكتاب واشتراء الضلالة واشتراء العذاب.

خامسا: السياق المقامي: إنَّ هذا النوع من التعجب يشتغل على المقام بدرجة أولى، وإن كانت البنية النحوية أو السياق اللغوي تمثيلا للمقام؛ إذ عمل التعجب على استشراق المستقبل، وتنزيله بمنزلة الواقع المستقر في الذهن، ثم توجيه المخاطبين إلى التنبيه عليه.

وصفوة القول أن قراءة ابن عاشور للخطاب القرآني تكشف عن مراحل إنشاء عمل التعجب بدقة، وتظهر أثر السياق (اللغوي والمقامي) في بناء التعجب ممّا لما يقع، على أنها تدلّ على وعي عميق بلطف هذا اللون من التعجب، ودقّة مسلكه، كما أنه تدلّ على رصانة منهج المفسّر في فحص خصائص إنشاء التعجب في الخطاب القرآني وشروطه التي بني عليها.

## ٢- (غير الواقع) بين التعجب والتعجب.

نبّه الطاهر بن عاشور إلى ورود التعجب في القرآن الكريم ممّا لم يقع؛ أي ممّا لم يحدث ويستقرّ في الواقع، وذلك باستحضار المشهد المتعجب منه بأحداثه وأشخاصه وشروطه السياقية اللغوية والمقامية، وتوجيه المخاطبين إلى الانفعال تجاهها، وقد بدت هذه الطريقة في التعجب واضحة وجليّة؛ لأنها تبنى على التعجب من حال واقعة ومستقرّة في اعتقاد السامعين، يحقّقها القرآن الكريم ويؤكدّها ويبني عليها إنشاء التعجب.

ولكنّ ما نوّد التنبيه إليه هنا هو العلاقة بين التعجب والتعجب، أي صلح مصطلح التعجب على التعجب أم لا يصلح؟ وإذا صلح ذلك فكيف يمكن التفريق بينهما؟

ونحن نحاول بحث الإجابة عن ذلك عند ابن عاشور من خلال النظر في تفسير قوله تعالى: □ **أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَّا لَكِنَ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** □ [مريم ٣٨]، لنا أن نعرض الآراء في تفسير التعجب الوارد فيها؛ إذ يشير الزجاج (ت ٥٣١) إلى مسألة استشراق المشهد غير الواقع واستحضاره، وكأنّه وقع، لرسوخه في أذهان المخاطبين، ثم يفسّر البنية النحوية ببنية أخرى مماثلة لها في العمل؛ فيقول: "المعنى ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة؛ لأنهم شاهدوا من البعث وأمر الله عزّ وجلّ ما يسمع ويبصر بغير إعمال فكر وتروية" (٤٦).

أمّا الزمخشري فقد عرض لحقيقة التعجب في القرآن الكريم، إذ ذكر أنّ الله تعالى لا يوصف "بالتعجب وإثما المراد أنّ أسمعهم وأبصرهم يومئذ جدير بأن يُتّعجب منهما بعد ما كانوا صمّا وعميا في الدنيا" (٤٧)، وعلى ما يبدو أنّ معالجة إنشاء التعجب بدت واضحة لديه؛ إذ ليس في الخطاب ما يحمل على التعجب، وإثما هو لتعجب المخاطبين بتبيان بعض الأحوال المخالفة للمألوف، فمن كانوا صمّا حين كان السمع نافعا وكانوا عميا حين كان البصر نافعا سمعوا وأبصروا حين لم ينفعم السمع والبصر، على أنّ الفرق بين السمعين والإبصارين، هو الفرق بين ما وقع (الذنيوي) وما لم يقع (الأخروي)، ولكنّ الحالين ثبتا في

الخطاب القرآني، واستقرّا في أذهان المخاطبين، إلى درجة التعجب؛ إذ يقول الفخر الرازي (ت ٥٦٠٦): "معناه أنّ هؤلاء ما تقولون فيه أنتم هذا النحو من الكلام"<sup>(٤٨)</sup>، ويعني ما تقولون فيه ما يعبر عن انفعالكم. أمّا الطاهر بن عاشور، فقد أشار إلى تقارب معنى التعجب والتعجب مع اختلاف الفاعل؛ إذ يرى أنّ قوله: "□ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ □ صِيغَتَا تَعَجَّبَ، وهو تعجّب على لسان الرسول والمؤمنين، أو هو مستعمل في التعجب، والمعنيان متقاربان، وهو مستعمل كناية أيضا عن تهديدهم، فتعيّن أنّ التعجب من بلوغ حالهم في السوء مبلغا يُتَعَجَّبُ من طاقتهم على مشاهدة مناظره وسماع مكارهه، والمعنى مَا أَسْمَعَهُمْ وَمَا أَبْصَرَ هُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، أي ما أقدروهم على السمع والبصر بما يكرهونه"<sup>(٤٩)</sup>.

وينبغي هنا أنّ نوّكّد أنّ حكاية القرآن الكريم أحوال الآخرين أمر واقع لا شكّ فيه؛ إذ تكلم القرآن على لسان الأنبياء والرسل والملائكة وإبليس والمؤمنين والكافرين، ونقل معاني ما قالوا بصورة واضحة وجليّة اتّضحت في كثير من القصص القرآني<sup>(٥٠)</sup>، ولكنّ عدّ التعجب على لسان الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) والمؤمنين محلّ نظر، وأنّ المعنيين غير متقاربين، فالأوّل يستدعي حكاية القرآن التعجب على لسان النبي، وهذا ما لا يعصده السياق، والثاني توجيه المخاطبين وتنبيههم لأن يتعجبوا وهذا ما يؤيده ابن عاشور نفسه.

وبالجملة أنّ قوله تعالى: □ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ □ إنشاء تعجب تتّضح قوّته الإنجازية في استحضار المخاطبين لحال المقصودين ورسوخها في أذهانهم ثمّ التعجب منها.

**ثانيا: عمل التعجب غير المباشر**

بدا لنا ممّا تقدّم توظيف القرآن الكريم لبنية التعجب القياسي للتعجب ممّا لما يقع ويثبت في الواقع بصورة مباشرة، ونريد هنا أن نوضّح التعجب بالطرائق غير المباشرة بين الواقع وغير الواقع، ذلك أنّ القرآن الكريم وظّف صيغا أخرى للتعجب ممّا لما يقع: خبريّة وإنشائيّة، نحو الخبر والأمر والنهي والاستفهام والنداء وغير ذلك، على أنّ أغلب مواضع توظيف هذه الصيغ جاءت للتعجب من الأحداث الواقعة المستقرّة في الأذهان، وقد عمل القرآن الكريم على استحضار تلك الأحداث الماضية وتأكيدا وتنبيه المخاطبين إلى التعجب منها، ولا نعدم مجيء مثل تلك الصيغ للتعجب ممّا لما يقع؛ إذ ورد السبيلان في القرآن الكريم في مواضع متفاوتة.

ولمّا كان عمل التعجب غير محصور بقوانين لسانيّة خاصّة به، وإن كانت له صيغ معروفة، فإنّ عمل التعجب هو الآخر الذي لا ينحصر في استعمال دون آخر<sup>(٥١)</sup>، بل يمكن أن ينجز بصور متنوّعة.

وقد اشتغل ابن عاشور في تفسيره على تبيان مواضع التعجب غير المباشر في القرآن الكريم، مشيرا إلى ما وقع منها وما لما يقع، أمّا التعجب ممّا وقع وثبت فقد تنوّعت بناه التركيبيّة بين الاستفهام والخبر، فالاستفهام نحو قوله تعالى: □ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ □ [البقرة ٢٤٣]؛ إذ يرى ابن عاشور أنّ البنية النحويّة للاستفهام في الخطاب القرآني تؤدّي عمل التعجب؛ ذلك أنّ التركيب (أَلَمْ تَرَ إِلَى كَذَا) يكون فيه فعل الرؤية متعدّيا إلى ما لم يره المخاطبون، وهذا ما يفضي بالاستفهام إلى الخروج عن معناه المباشر إلى معنى غير مباشر يتلخّص في تحريض المخاطبين لأداء عمل ما، ثمّ صرّح بأنّ الاستفهام في الآية الكريمة قد يكون مستعملا في التعجب من جهل المخاطبين بمفعول فعل الرؤية، أو أن يكون هذا الفعل محمولا على معنى الفعل (نظر)، فيكون المخاطبون قد استدعوا هذا المشهد بعقولهم، وكأنّهم شاهدوه من قبل.<sup>(٥٢)</sup>

وعلى ما يبدو أنّ ابن عاشور يركّز على مسألة استحضار المشهد لدى المخاطبين سواء أكان واقعا أم غير واقع، وقد بدت هذه الظاهرة واضحة في تفسيره، ومثل ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى: □ أَلَمْ تَرَ

إِلَى الَّذِينَ يُرْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ فَتِيلاً □ [النساء ٤٩]؛ إذ بين أن قوله (الْمَ تَرِ إِلَى الَّذِينَ يُرْكُونَ أَنْفُسَهُمْ) "تعجيب من حال اليهود"<sup>(٥٣)</sup>، على أن الآيتين في ظاهرهما تخاطبان المفرد المتمثل بالضمير المستتر (أنت) وهو مخاطب مخصّص، وإن كان الخطاب شاملاً لجميع السامعين والمتلقين.

ولعل من يتتبع تفسير ابن عاشور يجده ينبّه على أن التعجيب ممّا وقع وثبت قد أنجز بصيغ نحوية أخرى غير صيغ التعجّب والاستفهام، ومن أمثلة ذلك إشارته إلى التعجيب بصيغة الخبر في قوله تعالى: □ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ □ [الزخرف ٣٠]؛ إذ صرّح بأن الآية "تعجيب من حال تغافلهم، أي قد كان لهم بعض العذر قبل مجيء الرسول (صلى الله عليه وسلم) والقرآن لأنّ للغفلات المتقدمة غشاوة تُصَيِّرُ الغفلة جهالة، فكان الشأن أن يستيقظوا لما جاءهم الحقّ ورسول مبين فيتذكروا كلمة أبيهم إبراهيم، ولكنهم لما جاءهم الحقّ قالوا: هَذَا سِحْرٌ، أي قالوا للرسول: هَذَا سَاحِرٌ، فازدادوا ريناً على رين، فالخبر مستعمل في التعجيب لا في إفادة صدور هذا القول منهم"<sup>(٥٤)</sup>، ولما كان القرآن الكريم خطاب يعمل على حلّ معضلة وتغيير وضع ذهني يترتب عليه تغيير وضع ماديّ، فالمخاطبون هنا واقعون خارج الخطاب، أي أنّ المخاطب في الآية غير معيّن، وإمّا هو خطاب لجمهور السامعين (الجمهور الكوني) على اختلاف عصورهم<sup>(٥٥)</sup>، وهو تنبيه لهم وحملهم على الانفعال ممّا تضمنه الخبر، على أنّ هذا النوع من التعجيب لا يراد منه الاقتصار على التأثير الذهنيّ فحسب، بل يراد به انفعال يفضي إلى تغيير سلوكي لدى السامعين<sup>(٥٦)</sup>، وهذا ما يفرضه الاستفهام الذي يتطلّب من المخاطب إجابة.

أمّا التعجيب غير المباشر ممّا (لما يقع) فالأغلب أن ينجز ببنية الاستفهام، إذ بدا لنا أنّ الاستفهام كثيراً ما يرد في الخطاب القرآني لإيقاع عمل التعجيب ممّا لمّا يحدث، وهو معنى ضمنيّ غير مصرّح به؛ يكمن تحت ظاهر الخطاب، والمفسّر في هذه الحال يشتغل على السياق المقاميّ للوقوف على ما يستلزمه الخطاب من معاني محتلمة، ممّا لا يكون مصرّحاً به، وعلى هذا يعمل المفسّر على تحقيق أمرين: "الأول شكليّ يتعلّق بقوانين العربية وسننها، والثاني تداوليّ يقوم على تلمّس عناصر السياق؛ على أنّ هذين الأمرين يقومان على التكامل لا التعارض؛ إذ يصعب الفصل بين ما يتعلّق بالشكل، وما يتعلّق بالسياق"<sup>(٥٧)</sup>؛ فقد يبدأ المفسّر من سياق المقام إلى تفسير التركيب، وقد يكون العكس؛ فيبدأ من التركيب إلى السياق، ويزاوج بينهما، ويفيد من تلك المعطيات في تحديد عمل التعجيب.

وعلى وفق هذا المعطى يمكن أن نرصد مقارنة بين طريقة المفسّر في الكشف عن المعاني المضمرّة، ومفهوم الاستلزام الحواريّ في التداوليّات الحديثة؛ فإذا كان المفسّر قد اشتغل على تبيان التعجيب غير المباشر، فإنّ الاستلزام الحواريّ يبحث عن "رسالة مضمرّة ذات معنى أعمق من المعلومة القضيويّة المباشرة"<sup>(٥٨)</sup>؛ فهو "حلقة الوصل بين المعنى الحرفيّ الصريح والمعنى المتضمّن"<sup>(٥٩)</sup>؛ فالقول والقصد في الاستلزام الحواريّ يمكن أن يقارب مع الخطاب القرآنيّ وتفسيره، أو مع ما ورد في القرآن من الاستفهام، وحمله المفسّر على التعجيب.

ولعلّ من أبرز أمثلة ذلك ما ذكره ابن عاشور في تفسير الاستفهام بالتعجيب ممّا لمّا يقع، ما جاء في قوله تعالى: □ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ □ [محمد ٢٧]؛ إذ ركّز ابن عاشور على الموازنة بين حالين وهي حال الارتداد عن القتال هلعا وخوفاً، وحال الخوف والوجل عند الوفاة؛ لأنّهم ميّتون لا محالة، ثمّ ذكر أنّ "المقصود وعيدهم بأنّهم سيجعل لهم العذاب من أوّل منازل الآخرة وهو حالة الموت، ولما جعل هذا العذاب محققاً وقوعه رُتّب عليه الاستفهام من حالهم استفهاماً مستعملاً في معنى تعجيب المخاطب من حالهم عند الوفاة، وهذا التعجيب مؤذن بأنّها حالة فظيعة غير معتادة؛ إذ لا يُتَعَجَّبُ إِلَّا من أمر غير معهود، والسياق يدلّ على الفظاعة"<sup>(٦٠)</sup>.

وعلى ما يبدو أنّ ابن عاشور قدّم بنظرة بلاغية قوينة قراءة دقيقة للسياق المقاميّ بتبيان حال ارتدادهم عن القتال وموازنتها مع حالهم عند الوفاة، وهذه القراءة يسّرت عليه الكشف عن عمل التعجيب ممّا لمّا يقع في الخطاب القرآنيّ، وهو عمل غير مباشر قائم على الاستفهام، وممّا يلحظ أنّ ابن عاشور لم يعمد إلى بيان عمل التعجيب إلّا بعد أن ركّز على حقيقة وقوع العذاب، أيّ أنّه بيّن أنّ القرآن الكريم عمل على استحضار مشهد الآخرة، وتحقيقه ثمّ نبّه إلى التعجّب من حالهم فيه.

والأمثلة القرآنيّة كثيرة على ذلك، ومنها قوله تعالى: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق 3]؛ إذ بيّن الطاهر بن عاشور حكاية القرآن الاستفهام على لسان الكافرين، وذكر أنّ "الاستفهام مستعمل في التعجيب والإبطال، يريدون تعجيب السامعين من ذلك تعجيب إحالة لنلّا يؤمنوا به، وجعلوا مناط التعجيب الزمان الذي أفادته (إذا) وما أضيف إليه، أي زمن موتنا وكوننا تراباً".<sup>(٦١)</sup>

ويمكن أن نلحظ في الخطاب أموراً عدّة: الأولى أنّ الاستفهام في الخطاب جاء حكاية على لسان الكافرين، أي أنّ المتكلم في الخطاب هم الكافرون، والثاني: أنّ القوّة التأثيرية للاستفهام تتمثل في إنشاء التعجيب عند السامعين، وهو تعجيب من تصوّرهم استحالة الرجوع إلى الحياة بعد الموت، على أنّ أمر (الرجع) قارّ في اعتقاد السامعين، ومقطوع به، والثالث: أنّ إنشاء التعجيب يشتغل على حال غير واقعة، لكنّها ثابتة في الاعتقاد، وإن كانت منكورة عند الكافرين، ويمكن أن تكون الآية هنا تعجيباً على تعجيب، أي أنّ القرآن الكريم عرض تعجيبهم للسامعين تجاه حال (الرجع)، ونبّه المخاطبين إلى التعجّب من حالهم.

وصفوة القول أنّ إنشاء التعجيب في الخطاب القرآنيّ قد يجري بصورة غير مباشرة بالاعتماد على بنية الاستفهام، وأنّ أغلب التراكيب الاستفهامية الدالة على التعجيب جاءت للتعجيب ممّا لمّا يقع في الحال، وإن كان واقعا في اعتقاد المتكلم، غير أنّ عمل التعجيب هنا يشتغل على إحداث الانفعال لدى المخاطب، وإن كان مفترضا على لسان جماعة من الناس.

## الخاتمة

خلص البحث من متابعة عمل التعجيب ممّا لمّا يقع في الخطاب القرآنيّ في مقاربات الطاهر بن عاشور إلى جملة من النتائج يمكن إيجازها بما يأتي:

- ١- ورد مصطلح التعجيب في اللغة للدلالة على حمل المخاطب على التعجّب، وقد أخذ النحويّون هذا المفهوم، ووظفوه في توجيه تركيب التعجّب في الخطاب القرآنيّ.
- ٢- استعمل المفسّرون مصطلح التعجيب في تفسير الخطاب القرآنيّ في وقت مبكّر؛ إذ ظهر هذا المصطلح عند الطبري ومن تبعه من المفسّرين، واستقرّ عند الزمخشريّ، ونضج عند الطاهر بن عاشور.
- ٣- إنّ محاولة وضع حدّ لمصطلح التعجيب عند الباحثين المحدثين لم تخرج كثيراً عمّا سطره المعجميون والنحويّون والمفسّرون في بيان مفهومه، لكنّ الخلاصة الوصفية التي انتهوا إليها تصلح للتمييز بين المصطلحين بشكل أتمّ.
- ٤- تعدّدت مقاربات القدماء والمحدثين في تصنيف لتعجّب تركيباً وعملاً، واختلفت في زوايا النظر والنتائج، فتردّدا في تصنيفه بين الواجب وغير الواجب والخير والإنشاء، أمّا عمل التعجيب فإنّه يختلف من حيث معيار التصنيف، وهذا ما يؤكّد تصنيفه ضمن الإنشاء وغير الواجب متجاوزاً التقسيم الثالث الذي قال به بعض المحدثين.

- ٥- تبيّن من متابعة كتب اللغة والنحو وتفسير القرآن الكريم ولا سيّما تفسير التحرير والتنوير أنّ مصطلح التعجّب لا يصلح إطلاقه على كثير من الاستعمالات القرآنيّة، وإنّما هو تعجيب للمخاطبين، وتنبيه لهم، يحملهم على التعجّب.
- ٦- إنّ التعجيب ممّا لمّا يقع في الخطاب القرآنيّ مرّ بمرحلة تمهيدية اشتغلت على المقام، فأُنزلت غير المواقع بمنزلة الواقع، حتّى رسخ وثبت في أذهان المخاطبين، وكأنّه واقع صالح للتعجّب.
- ٧- يمكن تقسيم عمل التعجيب في القرآن الكريم إلى عمل مباشر مستند إلى تركيب التعجّب، وعمل غير مباشر مستند إلى الاستفهام والخبر، وقد أثبت البحث إلى أنّ التعجيب غير المباشر ممّا لمّا يقع غلبت تكوّنه في أسلوب الاستفهام.

### هوامش البحث

- (١) ينظر: العين (عجب): ٢٣٥/١، وتهذيب اللغة (عجب): ٢٤٧/١.
- (٢) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم (عجب): ٥٨٠/١، ولسان العرب (عجب): ٥٨٠/١.
- (٣) ينظر: العين (عجب): ٢٣٥/١، وتهذيب اللغة (عجب): ٢٤٧/١.
- (٤) ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية (عجب): ١٧٧/١، ومختار الصحاح (عجب): ٢٠٠/١.
- (٥) لسان العرب (عجب): ٥٨١/١، وينظر: تاج العروس (عجب): ٣٢٠/٣.
- (٦) ينظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني: 3/23.
- (٧) شرح الرضيّ على الكافية: ٢٨٨/٤.
- (٨) كتاب سيوييه: ٣٣١/١.
- (٩) المقتضب: ١٨٣/٤.
- (١٠) ينظر: الأبعاد التداولية في كتاب المقاصد الشافية للشاطبيّ (ت ٥٧٩هـ): ١٨٣.
- (١١) المقاصد الشافية: ٤٥٠/٤.
- (١٢) ينظر: التداولية عند العلماء العرب: ١٦٢، والخطاب القرآنيّ دراسة في البعد التداولي: ١١١.
- (١٣) ينظر: أمالي ابن الحاجب: ١٧٥/١.
- (١٤) ولم يكن الزمخشريّ أوّل من وظّف مصطلح التعجيب في وصف هذا النوع من الإنشاء بحسب ما يفهم ممّا رقمه الدكتور مسعود صحراويّ حين ذكر أنّ الأصوليين والمفسرين والمتكلمين "استحسنوا صنيع الزمخشريّ إذ عبّر عنه بالتعجيب" التداولية عند العلماء العرب: ١٦١.
- (١٥) جامع البيان عن تأويل أي القرآن: ٥٦٧/٤.
- (١٦) حاشية الشهاب على تفسير البيضاويّ: ٣٠٣/٧.
- (١٧) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٤٢/٣.
- (١٨) التحرير والتنوير: ١٠/١٥.
- (١٩) المصدر نفسه: ١٠/١٥.
- (٢٠) حاشية الشهاب على تفسير البيضاويّ: ٣٦١/٨، وينظر: محاسن التأويل: ٤٧٦/٩، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ٣٥١/١٥، ومعتزك الأقران: ٣٣٠/١.
- (٢١) الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: ٤٣٦.
- (٢٢) التداولية عند العلماء العرب: ١٦٢.
- (٢٣) ينظر: البنية المؤلّة والبنية المؤلّ إليها (أطروحة دكتوراه): ٦١، والإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: ٧٥، ١١١، والواجب وغير الواجب في كتاب سيوييه (رسالة ماجستير): ٥٢.
- (٢٤) كتاب سيوييه ٧٢/١.
- (٢٥) ينظر: مفهوم الجملة عند سيوييه ٢٥١-٢٥٢.
- (٢٦) الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: ١٧٢.
- (٢٧) المقتصد في شرح الإيضاح: ٣٧٦.

- (<sup>٢٨</sup>) شرح الرضوي على الكافية: ٢٢٨/٤.
- (<sup>٢٩</sup>) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ١١٤—١١٦.
- (<sup>٣٠</sup>) ينظر: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: ٢٨١، والتداوليات علم استعمال اللغة: ٥٣٣، وإفصاحية التعجب مقارنة في التركيب والدلالة والتداولية، مجلة (والقلم)، ع/٣٤، مج/١، ص ١٢٧.
- (<sup>٣١</sup>) الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: ٢٨٢.
- (<sup>٣٢</sup>) ينظر: المصدر نفسه: ٢٨٨.
- (<sup>٣٣</sup>) ينظر: فعليات المعرفة اللغوية: ٣٣٢.
- (<sup>٣٤</sup>) ينظر: التركيبات الوظيفية قضايا ومقاربات: ١٠٢—١٠٣، وفعليات المعرفة اللغوية: ٣٣٢.
- (<sup>٣٥</sup>) ينظر: دائرة الأعمال اللغوية: ٢٣٠.
- (<sup>٣٦</sup>) ينظر: الواجب وغير الواجب في كتاب سيوييه: ٢٥٣—٢٥٥.
- (<sup>٣٧</sup>) ينظر: دائرة الأعمال اللغوية: ٢٣٠.
- (<sup>٣٨</sup>) المصدر نفسه: ٢٣١.
- (<sup>٣٩</sup>) الأفق التداولي، نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية: ١.
- (<sup>٤٠</sup>) معاني القرآن (الفراء): ١٠٣/١.
- (<sup>٤١</sup>) المقتضب: ١٨٣/٤.
- (<sup>٤٢</sup>) الإنصاف في مسائل الخلاف: ٣٩٣/٢.
- (<sup>٤٣</sup>) شرح المفصل: ٤٠٤/٢.
- (<sup>٤٤</sup>) التذيل والتكميل: ٢١٦/١٠.
- (<sup>٤٥</sup>) التحرير والتنوير: ١٢٥/٢.
- (<sup>٤٦</sup>) معاني القرآن وإعرابه: ٣٣٠/٣.
- (<sup>٤٧</sup>) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ١٧/٣.
- (<sup>٤٨</sup>) مفاتيح الغيب: ٣٢٣/٢٦.
- (<sup>٤٩</sup>) التحرير والتنوير: ١٠٧/١٦.
- (<sup>٥٠</sup>) ينظر: حكاية القرآن أقوال الآخرين (بحث)، مجلة المصباح — العتبة الحسينية المقدسة، ع/١٩، ص ٢٥٤—٢٧٤.
- (<sup>٥١</sup>) ينظر: الأبعاد التداولية في كتاب المقاصد الشافية للشاطبي (ت ٥٧٩٠هـ): ١٨٣.
- (<sup>٥٢</sup>) ينظر: التحرير والتنوير: ٤٧٦/٢.
- (<sup>٥٣</sup>) المصدر نفسه: ٨٤/٥.
- (<sup>٥٤</sup>) المصدر نفسه: ١٩٨/٢٥.
- (<sup>٥٥</sup>) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٤٢.
- (<sup>٥٦</sup>) ينظر: الأبعاد التداولية في كتاب المقاصد الشافية للشاطبي (ت ٥٧٩٠هـ): ١٦٠.
- (<sup>٥٧</sup>) تقويل المتكلم في درس النحوي، مقارنة تداولية: ٢٥٣.
- (<sup>٥٨</sup>) مدخل إلى دراسة التداولية ١٦.
- (<sup>٥٩</sup>) النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) ٨٨.
- (<sup>٦٠</sup>) التحرير والتنوير: ١١٨/٢٦.
- (<sup>٦١</sup>) المصدر نفسه: ٢٨٠/٢٦.

## المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الأبعاد التداولية في كتاب المقاصد الشافية للشاطبي (ت ٥٧٩٠هـ): د. أحمد حسين حيال، دار نيبور - العراق، ط ٢، ٢٠٢٠م.

- إفصاحية التعجب مقارنة في التركيب والدلالة والتداولية: د. أحمد حسين حيال، مجلة (والقلم)، ع/٣٤، مج/١، ٢٠١٧م.
- الأفق التداولي، نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية: د. إدريس مقبول، عالم الكتب الحديث - الأردن، ط١، ٢٠١١م.
- أمالي ابن الحاجب: أبو عمرو جمال الدين عثمان بن عمر بن أبي بكر ابن الحاجب (ت٦٤٦هـ)، تح: د. فخر صالح سليمان قدارة، دار عمار - الأردن، ودار الجيل - بيروت، ط١، ١٩٨٩م.
- الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، دراسة نحوية تداولية: د. خالد ميلاد، جامعة منوبة والمؤسسة العربية للتوزيع - تونس، ط١، ٢٠٠١م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين: أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله كمال الدين الأنصاري (ت٥٧٧هـ)، المكتبة العصرية - بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.
- البنية المؤولة والبنية المؤول إليها، دراسة العلاقة الشكلية والمعنوية في أمهات كتب النحو (أطروحة دكتوراه): محرز بوديه، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية - كلية الآداب بمنوبة، تونس، ١٩٩٩م.
- تاج العروس من جواهر القاموس: أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥هـ)، تح: مجموعة من المحققين، مطبعة حكومة الكويت، ٢٠٠١م.
- تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٨هـ)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط٤، ١٩٨٧م.
- تأويلات أهل السنة: أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي (ت٣٣٣هـ)، تح: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي (ت١٢٨٧هـ)، دار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤م.
- التداوليات، علم استعمال اللغة: مجموعة مؤلفين، تنسيق وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث - الأردن، ط٢، ٢٠١٤م.
- التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي: د. مسعود صحراوي، دار الطليعة - بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

- التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل: أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تح: د. حسن هندأوي، دار القلم - دمشق، (د.ت).
- التركيبات الوظيفية، قضايا ومقاربات: د. أحمد المتوكل، مكتبة دار الأمان - الرباط، ٢٠٠٥م.
- تقويل المتكلم في الدرس النحوي، مقارنة تداولية: د. هاني كنهري العتّابي، دار أكاديموس - بغداد، ٢٠٢٢م.
- تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر (ت ٣٧٠هـ)، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد الطبري (ت ٣١٠هـ)، تح: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر - مصر، ٢٠٠١م.
- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (عناية القاضي وكفاية الراضي): شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري (ت ١٠٦٩هـ)، دار صادر - بيروت، (د.ت).
- حاشية الصبان على شرح الأشموني: أبو العرفان محمد بن علي الصبان (ت ١٢٠٦هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.
- الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: عبد الله صوله، دار الفارابي - بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
- حكاية القرآن أقوال الآخرين: محمد عدنان الربيعي، مجلة المصباح - العتبة الحسينية المقدسة، ع/١٩، ٢٠١٤م.
- الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي: د. مؤيد آل صوينت، مكتبة الحضارات - بيروت، ط ١، ٢٠١٠م.
- دائرة الأعمال اللغوية: شكري المبخوت، دار الكتاب الجديد المتحدة - بيروت، ط ١، ٢٠١٠م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (د.ت).
- شرح الرضي على الكافية: رضي الدين الحسن بن محمد بن شرف شاه الإستراباذي (ت ٦٨٦هـ)، تعليق وتصحيح: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس - بنغازي، ط ٢، ١٩٩٦م.
- شرح المفصل: موقّق الدين يعيش بن علي بن يعيش (ت ٦٤٣هـ)، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.

- العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ)، تح: د. مهديّ المخزوميّ، ود. إبراهيم السامرائي، وزارة الثقافة والاعلام - بغداد، ١٩٨٠ - ١٩٨٢م.
- فعليات المعرفة اللغوية: مجموعة مؤلفين، إعداد وتحريّر: مؤيد آل صوينت، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع - الأردن، ط١، ٢٠٢٢م.
- كتاب سيويوه: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠هـ)، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.
- لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي (ت ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، ط٣، ١٩٩٣م.
- اللغة العربية معناها ومبناها: د. تمام حسّان، دار الثقافة - المغرب، ١٩٩٤م.
- محاسن التأويل: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم القاسمي (ت ١٣٣٢هـ)، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- المحكم والمحيط الأعظم: أبو الحسن عليّ بن إسماعيل بن سيده (ت ٤٥٨هـ)، تح: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- مختار الصحاح: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي (ت ٦٦٦هـ)، تح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - بيروت، ط٥، ١٩٩٩م.
- مدخل إلى دراسة التداولية، مبدأ التعاون ونظرية الملائمة والتأويل: فرانثيسكو يوس راموس، ترجمة: يحيى حمداي، دار نيبور - العراق، ط١، ٢٠١٤م.
- معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تح: محمد علي النجار وآخرين، عالم الكتب - بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.
- معاني القرآن وإعرابه: أبو اسحاق إبراهيم بن السريّ الزجاج (ت ٣١١هـ)، تح: د. عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب - بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن (إعجاز القرآن ومعترك الأقران): عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٨٨م.

- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): أبو عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٣، ١٩٩٩م.
- مفهوم الجملة عند سيبويه: د. حسن عبد الغني الأسدي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ٢٠٠٧م.
- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، تد: مجموعة محققين، معهد البحوث العلمية وتحقيق التراث الإسلامي - السعودية، ط ١، ٢٠٠٧م.
- المقتصد في شرح الإيضاح: عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تح: د. كاظم بحر المرجان، دار الرشيد - منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، ١٩٨٢م.
- المقتضب: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تد: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب - بيروت، (د. ت).
- النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية)، دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ: د. محمود عكاشة، مكتبة الآداب - القاهرة، ط ١، ٢٠١٣م.
- الواجب وغير الواجب في كتاب سيبويه (رسالة ماجستير): أفراح بنت علي المرشد، جامعة القصيم - كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، المملكة العربية السعودية، ٢٠١٢م.